

الشعر في العصر المملوكي (648 - 923هـ)

يمتد العصر المملوكي من سنة 648هـ إلى سنة 923هـ، وهي فترة طويلة، يصعب على الإنسان أن يتحدث عنها بإيجاز شديد كما نصنع نحن هنا؛ إذ تحتاج إلى دراسات ودراسات.

ولكن لا بأس من إشارات عابرة إلى حالة الشعر وحياته في ذلك العصر.

وعلى الرغم من الأصل غير العربي لحكام هذه الفترة، فإنهم استطاعوا أن يتصدوا لفلول الصليبيين، وأن يطهروا البلاد من رجسهم، كما تصدوا ببسالة نادرة لهجمات التتار، واستطاعوا كسر شوكتهم، وخاصة في عين جالوت، ولولا تصديهم هذا لانحسرت الحضارة العربية، فغيروا بذلك مجرى التاريخ.

لقد صارت مصر في عهدهم ذرة التاج في العالم الإسلامي؛ ثقافة وأدباً وفناً وعمارة وحضارة، رغم ما مر بها - آنذاك - من مجاعات وأوبئة وانقسام طبقي وفساد اجتماعي في بعض الأحيان.

استمر تيار الثقافة في العصر المملوكي ممتداً؛ فلقد تحمس المهاليك للثقافة العربية والفكر العربي، وأخلصوا في ذلك إخلاصاً، والشواهد بين أيدينا حاضرة تدل على ذلك الاهتمام والحماس .. لقد شيّدوا الجوامع، وألحقوا بها المدارس وخزانات الكتب، واهتموا بالعلم والعلماء والأدب والأدباء، وكانت لديهم الغيرة الواضحة على ذلك، ويكفي القول إن مصر كانت المركز الأساسي للثقافة والحضارة والأدب والفكر في عصرهم.

والحق أن المد الشعري لم يتوقف؛ بل استمر قوياً فياضاً، ووجد الشعراء والأدباء من التشجيع، كما وجد أسلافهم من الشعراء في العهود السابقة.

لقد استمر للشعر نشاطه في ذلك العصر، وإن دب فيه أحياناً بعض الوهن، لكنه ظل فتيماً، ويكفي دلالة على نشاطه كثرة الشعراء وشعرهم، وتنوع أساليبهم وأغراضهم، وكثرة كتب التراث الأدبية التي وصلت إلينا من ذلك العصر، ويكفي القول إن كثيراً من الشعراء آنذاك قد عبر عن الذات والنفس أكثر من التعبير عن الحكام والارتباط بهم. ونود هنا أن نقف عند بعض الموضوعات البارزة في الشعر المملوكي، وأهمها ما يلي:

أ- الوصف:

الوصف من الفنون الشعرية المعروفة، وهو شيء ملازم للفطرة البشرية، فما تكاد عين الإنسان تقع على شيء، أو يحدث للإنسان شيء إلا وصفه وتحدث عنه. ويرى البعض أن الشعر العربي كله - في الأصل - وصف، ولكن لما تحدد كل غرض بشيء معين بقي وصف الطبيعة غرضاً قائماً بذاته.

والحق أن الشاعر العربي قد برع في وصف الطبيعة براعة لا حدود لها، وازدهر هذا الفن ازدهاراً في العصر المملوكي؛ لما جد في هذا العصر من مظاهر عمرانية وحضارية، وما استحدث الإنسان من قصور وحدائق وبساتين، لقد وقف الشاعر المملوكي يصف الطبيعة الجميلة ومظاهر الحضارة، حتى ما كاد يترك شيئاً إلا وصفه.

ولعل أهم ما وقف عنده يصفه ويتملى مجاله الحسان: الطبيعة المصرية بما حباها الله من جمال، وما خصها من آيات الإبداع والجلال، وأبرز مظاهر الطبيعة الجميلة في مصر النيل العظيم الذي حبا الله به مصر، فصارت به فردوس الدنيا وجنة الله في أرضه، هذا النيل الذي ألهب خيال الشعراء، وجعل عواطفهم دافقة كأمواه المتدفقة وأمواجه المترقرة.

افتن الشاعر المملوكي بالنيل، وبكل ما يتصل به من شواطئ وسفن ومراكب وأمواه وفيضان وأمواج وخلجان وصيد ونباتات وأسماء وبساتين حفته، وحدائق حوته، وأطنب في ذلك إطناباً، فأعطانا لوحات آية في الإبداع وغاية في الجمال، يقول ابن عبد الظاهر معبراً عن جمال النيل وحسنه، واستمرار تدفقه على مدى الدهر:

نَيْلٌ مِصرَ لِمَنْ تَأَمَّلَ مَرَأَى حُسْنُهُ مُعْجِزٌ وَبِالْحُسْنِ مُعْجَبٌ
 كَمْ بِهِ شَابَ فَوْدُهَا وَعَجِيبٌ كَيْفَ شَابَتْ بِالنَّيْلِ وَالنَّيْلُ يُخْضَبُ⁽¹⁾
 ويقول ابن دانيال مبرزاً محاسن النيل:
 كَأَنَّ النَّيْلَ الْخِضْمُ إِذْ بَدَا يَرَوِي حَدِيثًا وَهُوَ ذُو تَسْلُسُلِ
 لَمَّا رَأَى الْأَرْضَ بِهَا شَقِيقَهُ ضَمَّخَهَا بِإِيَّاهُ الْمَصْنَدِ⁽²⁾

أما أيدمر التركي فيطلب منا أن نسرح البصر ونعيده كرات في النيل السعيد، المقبل بالخير، وأن نتملى جمال مائه العذب الزلال، وأن ننظر إلى زوارقه الجارية على أمواجه، وكأنها هي عقارب فوق حيات تسعى في عدوها، وألا ننسى النظر إلى أسماكه الفضية الجميلة، يقول أيدمر:

أَنْظُرْ إِلَى النَّيْلِ السَّعِيدِ الْمُقْبِلِ وَالْمَاءِ فِي أَنْهَارِهِ كَالسَّلْسَلِ
 أَضْحَى يُرِيكَ الْحُسْنَ بَيْنَ مُورِدٍ مِنْ لَوْنِهِ حِينًا وَبَيْنَ مُصْنَدِ
 وَيَمُرُّ فِي قَيْدِ الرِّيَّاحِ مُسْلَسَلًا بِأَحْسَنِ مِنْ مَطْلَقٍ وَمُسْلَسَلِ
 وَتَرَى زَوَارِقَهُ عَلَى أَمْوَاغِهِ مَنْسُوبَةً لِلنَّظَرِ الْمُتَأَمِّلِ
 مِثْلُ عَقَارِبٍ فَوْقَ حَيَّاتٍ غَدَّتْ يَسْعَى بِهَا فِي عَدْوِهَا مَا يَأْتِي
 وَكَأَنَّهَا أَسْمَاكُهُ مِنْ فِضَّةٍ مِنْ جُمُودِ ذَائِبٍ مَائِهِ مِنْ أَوْلِ⁽³⁾

لقد كان النيل الشغل الشاغل لشعراء مصر في العصر المملوكي، إلى درجة أن بعضهم قد نظم شعراً خاصاً فيه سماه "مقطعات النيل"، مثل ابن الحاجب وابن الساعاتي، وإلى

(1) ديوان القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، ص 118، دراسة وتحقيق: د. غريب محمد علي، ط أولى، دار البيان العربي، سنة 1990.

(2) حسن المحاضرة، ج 2، ص 360.

(3) حسن المحاضرة، ج 2، ص 363.

درجة أن النيل قد تلاعب بخيال الشعراء، فصوره بعضهم ملكًا جميلًا عادلًا، جاء لينظر في أمر الرعية، فيكشف عنهم الضر، ويمنحهم الخير والسعادة، فقال:

كَأَنَّهُ مَلِكٌ وَاقٍ لِيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الرَّعِيَةِ إِنْ ضُرًّا رَأَى كَسَفًا⁽¹⁾

والبيت من قصيدة لشمس الدين النواجي، تسمى "تسيحة النواجي"، يتحدث فيها عن عاطفة جياشة مملوءة بالحمد والشكر لله أن جعل النيل يفيض على مصر بالخير والخصب والنماء، يستهلها قائلاً:

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَاقٍ نَيْلُنَا وَوَقَى وَبَلَّ غَلَّةَ قَلْبٍ كَانَ قَدْ نَشَفَا⁽²⁾

ويستمر النواجي في ترنيمة قائلاً:

دَقَّتْ بِشَائِرِهِ فِي مِصْرَ وَانْتَشَرَتْ رَايَاتُهُ بِقُلُوعِ آذَنْتُ بَوْفَا

أَرْخَى عَلَى النَّاسِ سِتْرَ الْعَدْلِ فِي رَوْضَةٍ مِنْ سَدَاها أَصْبَحَتْ أَنْفَا

قَدْ رَقَّ طَبَعًا فَمَا أَحْلَى زَوَائِدَهُ فِي الذَّوْقِ لَوْ مَرَّ فِي قَلْبِ الصِّفَا لَطَفَا⁽³⁾

ومضى شعراء ذلك العصر يتحدثون عن جزيرة الروضة والمقياس، وعن الظلال والألوان والأشجار والطيور التي تحف النيل وتشرب من مائه العذب، كما تحدثوا عن الحدائق والبساتين والرياض، وخاصة في وقت الربيع الذي يأتي فتزدهر فيه الدنيا، وتلبس حلاًلاً سندسية جميلة، ومن قدم لنا لوحات ربيعية في ذلك ابن عبد الظاهر، الذي نقرأ معه قوله:

وَبَطْحَاءٍ فِي وادٍ يَرُوقُكَ رَوْضُهَا وَلَا سِيَّامًا إِنْ جَادَ غَيْثٌ مُبَكَّرُ

تُلا حِظُّهَا عَيْنٌ تَفِيضُ بَأْدْمَعٍ يَرُوقُهَا مِنْهَا هُنَالِكَ مَحْجَرُ

(1)، (2) كوكب الروضة، السيوطي، ص 135 وما بعدها. مخطوط بدار الكتب المصرية؛ وانظر: كوكب

الروضة، ص 261، بتحقيق: محمد الششتاوي، ط دار الآفاق العربية، 2001م.

(3) كوكب الروضة، ص 261، بتحقيق محمد الششتاوي، ط دار الآفاق العربية، 2001م.

بِهَافَاَصْ مَهْرٌ مِنْ جُنَيْنٍ كَأَنَّهُ صَفَائِحُ أَصْحَتْ بِالنُّجُومِ تُسْمَرُ
 كَأَنَّ حَصَاهُ إِذْ بَدَا مِنْهُ أْبِيضُ وَأَحْمَرُ دَمْعٌ فِي الْخُدُودِ يُنْشَرُ
 وَإِلَّا فَابْرُدُ بِالظَّلَالِ مُسَهَّمٌ وَإِلَّا فَطَرَسُ بِالتَّجْعِدِ يُسَطَّرُ
 وَمَا لَاحَ فِي جَنِيهِ نَبْتُ وَإِنَّمَا تَبَدَّى عِذَارٌ مِنْهُ فِي الْحَدِّ أَخْضَرُ
 وَكَمْ غَازَلْتَهُ لِلغَزَالَةِ مُقْلَةً تُسَارِقُ أَوْرَاقَ الغُصُونِ فَتَنْظُرُ
 فَتَبْصِرُ مِنْهُ كُلَّ حُسْنٍ فَيَعْتَرِي حَيَاءٌ لَدَيْهِ وَجْهَهَا وَهُوَ أَصْفَرُ
 إِذَا فَاخَرْتَهُ الرِّيحُ وَكَلَّتْ عَلَيَّ بِأَذْيَالِ كُتُبَانِ الرُّبَا تَتَعَثَّرُ
 بِهِ الفَضْلُ يَبْدُو لِلرَّبِيعِ وَكَمْ عَدَا بِهِ الرَّوْضُ يَحْيَا وَهُوَ لَا شَكَّ مُعْبَرُ (1)

لقد برع الشاعر المملوكي براعة لا حدود لها في وصف البساتين والرياح، ووقف كثيرا - وهو في تلك الرياض - عند زهرها ونورها ووردها وشجرها وثمرها، يصفها في غاية من الدقة والروعة، وكأنها حينها تقرأ في ذلك الأمر نحس أننا دخلنا معه تلك الرياض، فتنزهنا وأبصرنا وشممنا وتمتعنا، فسرت نفوسنا واستراحت أجسادنا من عناء الحياة.

وقد قدم لنا السيوطي في حسن المحاضرة فصلاً رائعاً مما قيل من أشعار في الرياض والأزهار والأشجار والثمار، ومن ذلك قول ابن عبد الظاهر يصف الياسمين:

وَيَاسْمِينٍ قَدْ بَدَتْ أَزْهَارُهُ لِمَنْ يَصِفُ
 كَمِثْلِ ثُوبٍ أَخْضَرَ عَلَيْهِ قُطْنٌ قَدْ نَدِفَ (2)

(1) ديوان ابن عبد الظاهر، ص 116.

(2) حسن المحاضرة، ج 2، ص 423.

وقول ابن عبد الظاهر في المشمس:

حَبْدًا مَشْمُشٌ عَلَى الدَّوْحِ أَضْحَى ذَا شُعَاعٍ يَسْتَوْقِفُ الأَبْصَارَا
شَجْرٌ أَخْضَرٌ لَنَا جَعَلَ اللَّـ هُ تَعَالَى مِنْهُ كَمَا قَالَ نَارًا (1)

والحق أن الشاعر المملوكي لم يكذب يترك شيئاً من مظاهر الطبيعة إلا وقف عنده يصفه ويتحدث عنه، وكأنها كانت عينه عدسة لاقطة تصف كل شيء تقع عليه في تلك الطبيعة الجميلة.

وإلى جانب الربيعيات والنوريات والروضيات وصف القمر والشمس والنجوم، ووصف الآثار المصرية القديمة، وعلى رأسها الأهرام، ومن ذلك قول فخر الدين عبد الوهاب المصري، الذي حلق بخياله في جو تلك الأهرامات، وقدم لنا شيئاً من العظة والاعتبار من خلال ذلك الوصف الرائع:

أَمْبَانِي الأَهْرَامِ كَمِ مِنْ وَعِظٍ صَدَعَ القُلُوبَ وَلَمْ يَفْهَ بِلِسَانِهِ
هُنَّ الجِبَالُ الشَّامِخَاتُ تَكَادُ أَنْ تَمْتَدَّ فَوْقَ الأَرْضِ عَنْ كِيَوَانِهِ
لَوْ أَنَّ كِسْرَى جَالِسٌ فِي سَفْحِهَا لِأَجْلِ مَجْلِسِهِ عَلَى إِيوَانِهِ
تَبَّتْ عَلَى حَرِّ الزَّمَانِ وَبَرْدِهِ مُدَدًا وَلَمْ تَأْسَفْ عَلَى إِيوَانِهِ (2)

وعني الشاعر المملوكي - أيضاً - بوصف المدن والمنازل والأسواق والمدارس والمساجد والحمامات والأثاث والأدوات والحيوان ومجالس اللهو، وله في ذلك كله لوحات آية في الجمال والإبداع.

(1) ديوان ابن عبد الظاهر، ص 108، وفي رواية: "حبذا مشمس بجلق أضحى".

(2) الخطط، ج 1، ص 196.

2- الإخوانيات⁽¹⁾؛

الإخوانيات فن قديم في الشعر العربي؛ فلقد شهد العصر الجاهلي و صدر الإسلام شيئاً منه، وازدهر هذا الفن في القرن الرابع الهجري.

وأما الأدب المصري فلقد عرف لوناً منه في عصوره الأولى، وكثر وازدهر في العصر الأيوبي، وبلغ القمة في العصر المملوكي.

ولعل العلاقة المتينة التي كان تربط الشعراء بعضهم ببعض هي التي أوجدت هذا الفن، وهي علاقة ود ومحبة أحياناً، وعلاقة تنافس في بعض الأحيان، ويمكن أن يضاف إلى ذلك عامل الغربة الذي كان يؤجج الشوق ويبعث على الحنين، ثم المطالب المادية والبحث عن المناصب كانا من أهم الدوافع إلى النظم في هذا اللون، كما لا يغفل أنه يعد بديلاً عما افتقده الشعراء من تشجيع، وعوضاً عما يعانون من ألم وبؤس.

والحق أن شعر الإخوانيات مخالف لما تعارف عليه الشعراء واعتادوه؛ فهو شعر لا زيف فيه ولا تملق، شعر فيه الصراحة والصدق، يتسم صاحبه بالوفاء والمجاملة الرقيقة، وصدق العاطفة وقوتها، وعمق الشعور ورقة الإحساس، وهو شعر متنوع الأغراض، متوزع الموضوعات ما بين مديح وعتاب وشكوى وشوق واستعطاف وعزاء، ومن خلاله تظهر شخصية صاحبه، فهو يفصح عن القسامات النفسية لناظمه، ويدل على سعة خياله ودرجة ثقافته، وعلاقته بأصدقائه ومجتمعه، ويدل على منزلته عند إخوانه.

وهذا اللون من الشعر يهدف إلى الإطراف والمتعة والتسلية والنقد، وإظهار المهارة الأدبية والروح الأخوية والصلات الحميمة التي كانت تربط بين الشعراء، ويكشف عن علاقات اجتماعية ومودات أخوية وطبائع نفسية، وهو في بعضه لون من الفكاهة الأدبية والمداعبات الشعرية، كما أنه يشحذ الهمم والمواهب، ويؤدي إلى المساجلات والمناظرات،

(1) انظر في هذا الموضوع: الإخوانيات في شعر ابن الخيمي، د. غريب محمد علي، بحث بمجلة كلية الآداب بقنا، العدد الثامن، سنة 1998م.

ويظهر إلى أي مدى كان الشاعر يمرح ويجول في عالم الشعر بحرية دون قيود مفروضة عليه.

ومن ذلك اللون الشعري قول ابن الخيمي في الرد على شرف الدين بن الطوسي:
 حَبًّا ذَا وَارِدٌ صَفَا وَجِبًّا ظُلُّهُ صَفَا⁽¹⁾
 وكان شرف الدين الطوسي قد كتب إلى ابن الخيمي قائلاً:
 أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي قَوْلُهُ لِلْوَرَى صَفَا
 أَفْتِنَنِي فِي قَضِيَّةٍ أَنَا مِنْهَا عَلَى شَفَا
 أَتُرَى فِي شَرِيعَةِ الْـ حُبِّ هَذَا تَحْقِيقًا⁽²⁾

وفي قصيدة ابن الخيمي نرى الشاعر يفتي صاحبه بأن الذي رآه ما هو إلا إشارات عارف، وحالة من التصوف قد ألمت به؛ إذ يقول:

وَإِشَارَاتٌ عَارِفٍ ظَاهِرَاتٌ مَعَ الْخَفَا
 إِنَّ مَنْ صَاغَهُ الْغَرَا مُ إِلَى غَايَةِ الْخَفَا
 فَبِهِ الْبَيْتُ زَائِرٌ وَبِهِ قَدْ تَطَوَّقَا
 وَهُوَ فِي كُلِّ حَالَةٍ صَاحِبُ الصِّدْقِ وَالْوَفَا⁽³⁾

(1) انظر: ديوان ابن الخيمي، ورقة 73-74؛ وانظر: الديوان، تحقيق: هلال ناجي وزهير غازي، ط دار الوفاء، سنة 2008، ص 133، وقد جاء البيت على النحو التالي:

حبًّا واردة صفا وجنبًّا ظلُّه صفا

(2) ديوان ابن الخيمي، ورقة 73-74؛ انظر: الديوان المطبوع، ص 133، 134، وفيه: كلمة الخفا بدلا من (الخفا).

(3) ديوان ابن الخيمي، ورقة 73-74.

ومن هذا اللون أيضًا تلك المداعبة اللطيفة التي دارت بين ابن حنا والسراج الوراق، وكان للسراج حمار قد سقط في بئر فمات، فأرسل ابن حنا إلى السراج قائلاً:

يَقْدِيكَ جَحْشُكَ إِذْ مَضَى مُتَرَدِّيًا وَبَتَا لِدَى يُقْدِي الْأَدِيبُ وَطَارِفِ
عَدَمَ الشَّعِيرِ فَلَمْ يَجِدْهُ وَلَا رَأَى تَبْنَا وَرَاحَ مِنَ الظَّلَامِ كَالتَّالِفِ
وَرَأَى الْبُورِيَّةَ غَيْرَ خَافٍ مَاؤُهَا فَرَمَى حُشَّاشَةً نَفْسِهِ لِمَخَافِ
فَهُوَ الشَّهِيدُ لَكُمْ بِوَافِرِ فَضْلِكُمْ هَذِي الْمَكَارِمُ لَا حَمَامَةَ خَاطِفِ (1)

فرد عليه السراج قائلاً:

وَلَكُمْ بِكَيْتٍ عَلَيْهِ عِنْدَ مَرَابِعِ وَمَرَاتِعِ رُشَّتْ بِدَمْعِي الذَّارِفِ
يَمْشِي عَلَى عُسْرِي وَيُسْرِي صَابِرًا بِمَعَارِفِ تُلْهِيه دُونَ مَعَالِفِ
وَقَدْ اسْتَمَرَّ عَلَى الْقِنَاعَةِ يَقْتَدِي بِي وَهِيَ فِي ذَا الْوَقْتِ جُلٌّ وَظَائِفِي
لَكِنْ بِمَاءِ الْبُورِ رَاحَ بِنَقْلَةِ قَتَلْتَهُ شَامَاتٌ بِمَوْتِ جَارِفِ (2)

والحق أن الشعر المملوكي مملوء بمثل هذه الإخوانيات التي تحتاج إلى وقفة أكثر من ذلك.

(3) الشعر الديني؛

الشعب المصري متدين بفطرته، مجبول على حب الدين بسجيته، وقد أشرنا من قبل إلى أن مصر قد عرفت بذور الزهد والنسك منذ الفتح الإسلامي، وقد استمر هذا التيار حتى إذا ما كان عصر الولاة العباسيين رأيناه يخالطه شيء من التصوف، ويستمر التصوف في مصر، ويعبر عنه الشعراء تعبيرًا واضحًا، فإذا ما كان العصر الأيوبي نراه يصل إلى شيء من الازدهار؛ وذلك لعناية الأيوبيين بالمتصوفة الذين بنوا لهم الخوانق والربط، واستخدموا

(1) فوات الوفيات، ج 3، ص 257، ط دار الثقافة - بيروت.

(2) فوات الوفيات، ج 3، ص 257، ط دار الثقافة - بيروت.

التصوف سلاحًا يجاربون به المذهب الشيعي، فإن المماليك استمروا في تشجيع ذلك التيار، واستخدام ذلك السلاح كأسلافهم الأيوبيين.

ويتولد عن التصوف تيار المدائح النبوية، ذلك التيار الذي يلقي رواجًا لم يتحقق له في عصر سابق.

والحق أن المماليك كانوا يجلون المتصوفة ويوقروهم، ويتقربون إليهم، ويجرون عليهم الرواتب، ويهبونهم الأعطيات، ويقدرونهم تقديرًا بالغًا.

وقد ساعد على ازدهار التصوف والمدائح النبوية - إلى جانب تشجيع المماليك - عوامل عديدة، أهمها الحروب الصليبية، التي جعلت المسلمين يحسون بضرورة العودة إلى الدين والتمسك بأهدابه، وهجمات التتار الذين دمروا الخلافة الإسلامية في بغداد، وقد بعث ذلك حماسًا دينيًا في النفوس منقطع النظر.

ومما يضاف إلى ذلك خطر النصارى واليهود في الداخل؛ فلقد كانت تسول لهم نفوسهم - من حين إلى آخر - إعلان سب النبي ﷺ؛ مما أدى بالمسلمين إلى الوقوف لهم بالمرصاد.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الظروف الاجتماعية والاقتصادية أدت إلى أن يعود الناس إلى التمسك بدينهم، والاعتصام بسنة نبيهم ﷺ⁽¹⁾.

ويمكن هنا أن نشير إلى نوعين من الشعر الديني، برزا بروزًا واضحًا، هما:

أ- المديح النبوي⁽²⁾؛

وجد فن المديح النبوي منذ عصر الرسول ﷺ، وتطور عبر العصور، حتى بلغ قمته على يد الإمام البوصيري، الذي يعد المادح النبوي الأول في الأدب العربي، والبوصيري

(1) انظر: ديوان ابن سيد الناس، ج 1، ص 24، 25، ص 43، 45، د. غريب محمد علي، ط 1، الأمانة، سنة 1992م.

(2) انظر في هذا الموضوع: الاتجاه الديني في شعر القرن السابع الهجري في مصر، د. غريب محمد علي، ط دار الكتب المصرية، سنة 2014.

شاعر مصري (ت سنة 696هـ)، وهو رائد هذا الفن بلا منازع، وجاء من بعده تلميذه ابن سيد الناس (ت سنة 734هـ)، فتسلم الراية وبرع في هذا الفن براعة فائقة.

ويكفي أن نقول إن الأستاذ "البوصيري" وتلميذه "ابن سيد الناس"، قد أضافا إلى هذا الفن عناصر لم يتطرق إليها شعراء العصور السابقة على الإطلاق، ولم يكن البوصيري وابن سيد الناس هما فقط اللذان خاضا في هذا الفن؛ بل وجد شعراء كثيرون إلى جانبهم ينظمون ويمدحون، ومن شعر البوصيري قصيدته المشهورة (البردة)، التي ما زالت طوائف الصوفية ترددها وتتغنى بها إلى يومنا هذا، وقصيدته التي يعارض بها قصيدة "بانت سعاد"، ومن قوله في (البردة):

مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ	أَمِنَ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِنَدِي سَلَمٍ
وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلَمَاءِ مِنْ إِضْمٍ	أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاظِمَةٍ
سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعِمَمِ	يَا أَكْرَمَ الرُّسُلِ مَا لِي مِنَ الْوَدُوبِ
وَأَنَّهُ خَيْرٌ خَلَقَ اللَّهُ كُلَّهُمْ (1)	فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ

ومن قصيدته اللامية "ذخر المعاد" قوله:

وَأَنْتَ عَنِ كُلِّ مَا قَدَّمْتَ مَسْئُولٌ	إِلَى مَتَى أَنْتَ بِاللَّذَاتِ مَشْغُولٌ
وَعَقْدُ عَزْمِكَ بِالتَّسْوِيفِ مَحْلُولٌ	فِي كُلِّ يَوْمٍ تُرَجِّي أَنْ تُتُوبَ غَدًا
تِلْكَ الْجِبَالُ نَجِيَّاتٌ مَرَّاسِيلُ	مَتَى تَجُوبُ رَسُولَ اللَّهِ نَحْوِكَ بِي
لِلْعَالَمِينَ وَفَضْلُ اللَّهِ مَبْدُولٌ	وَمَا حَمَّدُ إِلَّا رَحْمَةً بُعِثَتْ
مِنَ الْمُهَيَّمِنِ إِبْلَغٌ وَتَوْصِيلُ (2)	دَامَتْ عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ يَكْفُلُهَا

(1) ديوان البوصيري، ص 238 وما بعدها، تحقيق: محمد سيد كيلاي، ط مصطفى البابي الحلبي، سنة 1974.

(2) ديوان البوصيري، ص 220 وما بعدها.

ومن شعر ابن سيد الناس في مديح النبي ﷺ قصيدته اللامية التي يعارض فيها لامية أستاذه البوصيري، يقول فيها:

قَلْبِي بِكُمْ يَا أَهْيَلَ الْحَيِّ مَا هُوَ
وَحَبْلُهُ بِأَمَانِي الْوَصْلِ مَوْضُوعٌ
يَا خَيْرَ مَنْ مَرَحَتْ كُمْتُ الْجِيَادِ بِهِ
وَمَنْ حَدَتْ نَحْوَهُ الْعَيْسُ الْمَرَاقِيلُ
يَا رَحْمَةَ اللَّهِ عَمَّتْ كُلَّ ذِي بَشَرٍ
مِنَ الْأَنْبَاءِ فَتَعَجَّلْ وَتَأَجَّلْ
صَلَّى وَسَلَّم رَبُّ الْعَرْشِ مَا وَحَدَتْ
وَجَنَاءُ فِي وَجَنَةِ الْبَيْدَاءِ شَمْلِيلٌ (1)

ومن شعر ابن سيد الناس في هذا الفن قوله:

مُحَمَّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْعَاهُمْ
قَدْرًا وَأَذْنَاهُمْ مِنْ رَبِّهِ زُلْفًا
يَا خَيْرَ مَنْ صَمَّ تُرْبُ الْأَرْضِ أَعْظَمَهُ
وَأَعْظَمَ النَّاسِ مَرْجُوًّا لِمَنْ جَنَفَا
مَنْ حَصَّه اللَّهُ فِي الذِّكْرِ الَّذِي شَرَفَتْ
آيَاتُهُ بِثَنَاءٍ زَادَهُ شَرَفًا (2)

ومن الشعراء الذين نظموا في هذا الغرض جمال الدين الأرميني (ت سنة 711هـ)، الذي يقول:

نَبِيِّ كَرِيمٍ أَجْمَلِ الْخَلْقِ صُورَةً
وَأَكْمَلُهُمْ خُلُقًا وَأَعْظَمُهُمْ مَثْوَى
وَأَسْمَحَهُمْ كَفًّا وَأَنْدَاهُمْ يَدًّا
وَأَكْثَرُهُمْ حَلْمًا وَأَعْظَمُهُمْ عَفْوًا (3)
وَمِنْهُمْ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ الَّذِي يَقُولُ:
جَاءَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بِكِتَابٍ
مُحْكَمِ النَّظْمِ كَامِلٍ إِرْشَادُهُ
هُوَ غَضُّ عَلَى الزَّمَانِ لِذِيذٍ
دَرْسُهُ لَا يَمْلُهُ تَرْدَادُهُ

(1) ديوان ابن سيد الناس، تحقيق: د. غريب محمد علي، ج 2، ص 127 وما بعدها.

(2) ديوان ابن سيد الناس، ج 2، ص 133 وما بعدها.

(3) الطالع السعيد، الأدفوي، ص 514.

أَعَجَزَ الْعَالَمِينَ طُرًّا وَمَنْ عَا لَبَّ بَحْرًا وَدَتَّ بِهِ أَطْوَاهُ (1)

(ب) الشعر الصوفي (2)؛

شط الشعر الصوفي نشاطًا ملحوظًا في تلك الفترة، وقد أشرنا إلى كثير من الأسباب التي أدت إلى ذلك النشاط، وتكونت الطرق الصوفية الكبرى التي ما زال حتى يومنا هذا لها أتباعها ومريدها، مثل الدسوقية والبدوية والشاذلية.

وتوزع الشعر الصوفي بين الحديث عن الحب الإلهي والمعرفة والفناء ووحدة الوجود ووحدة الشهود ووحدة الأديان، وبين الحديث عن الحقيقة المحمدية والحكم والمواعظ والنصائح والإرشادات.

وبمعنى آخر، أن شعر التصوف في تلك الفترة قد امتزج بالنظريات الفلسفية؛ إذ لم يكتف المتصوفة بالتصوف العملي، بل أضافوا إلى تصوفهم النظريات التي مزجت التصوف الإسلامي في العصور السابقة، وخاصة ما تجلى عند ابن الفارض سلطان العاشقين، وزعيم الشعراء الصوفيين في العصر السابق.

ولكن تلك النزعات الفلسفية بدأت تخف فيما بعد شيئًا فشيئًا، وبدأ شعراء التصوف ينظمون شعرًا صوفيًا يهتف به في مجالس الصوفية، ويردده منشدهم في حلقات الذكر.

ومن صوفية ذلك العصر ابن عطاء الله السكندري وابن نوح الأقصري القوصي، والدسوقي، وعبد العزيز الدريني وضياء الدين الغرناطي، وغيرهم كثير.

وإليك طائفة من شعرهم تدل على اتجاهاتهم ومنازعتهم الصوفية، يقول ابن عطاء الله السكندري داعيًا مريده، وناصحًا إياه بالذكر والعبادة:

لَا زِمَ الْبَابِ بِذُلٍّ وَأَسَى فَهَمَا فِي الْحُبِّ شَرٌّ يُتَزَمُ

(1) ديوان ابن دقيق العيد، ص 145، تحقيق د. علي صافي حسين، ط1، دار المعارف، سنة 1960.

(2) انظر: في التصوف الإسلامي، د. غريب محمد علي، ط الدار العربية للكتاب، سنة 2008.

وَدَعِ التَّقْصِيرَ فِي خِدْمَتِهِ وَشَمِّرِ الذَّيْلَ وَلَا تَخَشَّ الْأَمَّ (1)

ويقول ابن نوح في الحب الإلهي:

أَنَا أَفْنِي أَنْ تَرَكَ الْحُبَّ ذَنْبٌ آثِمٌ فِي مَذْهَبِي مَنْ لَا يُحِبُّ

ذُقْ عَلَى أَمْرِي مَرَارَاتِ الْهَوَى فَهُوَ عَذْبٌ وَعَذَابُ الْحُبِّ عَذْبٌ

كُلُّ قَلْبٍ لَيْسَ فِيهِ سَاكِنٌ صَبْوَةٌ عَذْرِيَّةٌ مَا ذَاكَ قَلْبٌ (2)

ويقول ابن نوح أيضًا:

لَا كَانَ مَنْ يَهْوَى لِغَيْرِ هَوَاكَ كَلًّا وَلَا قَلْبٌ يُحِبُّ سِوَاكَ

حَاشَا جَمَالَكَ أَنْ يَكُونَ لِعَاشِقٍ يَعْتَاضُ مَا يَعْتَاضُهُ إِلَّا كَا

فَالْكُونُ أَجْمَعُ وَالْوُجُودُ بِأَسْرِهِ يَهْوَى الْهَوَى وَكَذَا الْهَوَى يَهْوَاكَ

وَالْعِشْقُ أَصْبَحَ فِيكَ يُعْشَقُ كُلُّهُ مَا كَانَ يَعْشَقُ عِشْقَهُ لَوْلَا كَا (3)

ويقول عبد العزيز الدريني، محذراً من الدنيا، وداعياً إلى الزهد فيها وعدم الاغترار بها:

لَدَاتُ دُنْيَانَا كَأَحْلَامِ الْكَرَى وَبُلُوغُ غَايَتِهَا حَدِيثُ مُفْتَرَى

ازْهَدْ فَكُلُّ الرَّاعِبِينَ عَيْبُهَا وَالزَّاهِدُ الْحَبْرُ التَّقِيُّ سَعِيدُهَا

لَا تَغْتَرَّرْ بِوَمِيضِهَا وَخِدَاعِهَا فَوَرَاءَ مَبْسُومِهَا يُثُوبُ سِبَاعُهَا (4)

(1) لطائف المنن، ص 187، ابن عطا الله السكندري، سنة 1277 هـ.

(2) الطالع السعيد، ص 324.

وانظر: ابن نوح الأقصري القوصي وشعره الصوفي، د. غريب محمد علي، ط أولى، دار البيان، سنة 1989 م.

(3) الوحيد في سلوك أهل التوحيد، ابن نوح، ج 2، ورقة 182، مخطوط بدار الكتب.

(4) طبقات الشافعية، ج 5، ص 77.

ويقول إبراهيم الدسوقي معبراً عن حبه للذات العلية، هذا الحب الذي يجعله يرى الله في كل شيء، وفي كل وجهة يتجهها؛ بل إن هذا الحب هو سر حياته وكنه وجوده وغايته وأمله وأمنيته:

تَجَلَّى لِي الْمَحْبُوبُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ فَشَاهَدْتُهُ فِي كُلِّ مَعْنَى وَصُورَةٍ
وَخَاطَبَنِي مِنِّي بِكَشْفِ سَرَائِرِي فَقَالَ أَتَدْرِي مَنْ أَنَا؟ قُلْتُ مُنِّيَّتِي⁽¹⁾

4- شعر الفكاهة⁽²⁾؛

عرف الأدب العربي فن الفكاهة، وازدخر به ازدخاراً، وعجت المؤلفات بكثير من الفكاهات والنوادر والطرائف الأدبية.

وقد عرف هذا اللون في الشعر المصري، ولا غرابة في ذلك؛ فالمصريون معروفون بالميل إلى الفكاهة والدعابة منذ أقدم العصور، وقد عرف في مصر الإسلامية مجموعة من الشعراء المتنكرين المتطرفين، مثل الجمل الأكبر، وسيبويه المصري، وأبي الرقعمق، وابن مكنسة.

وإذا جئنا إلى هذا الفن في العصر المملوكي نجده قد اتسع وازدادت موجته، حتى لكأننا أمام مسرح كبير من الضحك والفكاهة طوال هذا العصر.

وقد استطاع شعراء هذا العصر أن يقدموا لنا صوراً كاركاتورية ساخرة، ولم يشهد عصر من قبل مثلهم عددًا، وكان على رأس هؤلاء: أبو الحسين الجزار والسراج الوراق وابن دانيال الكحال والحمامي وابن النقيب.

وفي اعتقادنا أن هناك أسباباً عديدة أدت إلى وجود الفكاهة في ذلك العصر؛ فاليئنة المصرية لها أثرها في صفاء النفس وطلاقة الأسارير وسهولة الطبع، ودفع الإنسان

(1) الطبقات الكبرى، الشعراي، ج 1، ص 201، ط ثانية، دار الطباعة 1286هـ.

(2) انظر في هذا الموضوع: شعر التحايق في العصر المملوكي الأول في مصر، د. غريب محمد علي، مجلة كلية الآداب بقتنا، عدد 4، سنة 1995م.

المصري إلى روح الفكاهة والمرح⁽¹⁾، والتاريخ المصري الحافل بأطوار الحوادث ومفارقات الأيام وآلام الحياة له أثر في دفع الإنسان المصري إلى الترويح عن النفس، وبالإضافة إلى ذلك فراغ "بعض الشعراء من العمل الجدي، أو بعدهم عن المناصب الرفيعة ذات الشأن التي تدعو إلى الجِد، وتذود عن مهاوي الهذر والمزاح"⁽²⁾، أدى إلى البحث عما يشغل هذا الفراغ من وسائل، فكانت الفكاهة إحدى هذه الوسائل، كما أن الحكومات الطارئة على مصر من خارج البلاد "رسبت في النفوس مرارة بالغة، مازجها الخوف من البطش، والخشية من غلظة الحاكمين، فتنفست هذه النفوس عن طريق الفكاهة؛ لتسلى وتتعزى"⁽³⁾، ولتعبّر عن الآلام والشقاء بلا صراحة، وتعبر عن السخط على بعض الحكام والسلاطين الغاشمين بطريقة غير مباشرة، وبالإضافة إلى ذلك، فإن مصر كادت تفرغ من الحروب الصليبية، وبدأ المصريون يخلدون إلى رخاء شاعت فيه فنون من اللهو واللعب، فتفجرت ينابيع الفكاهة في أنفسهم"⁽⁴⁾. ولعل شعراء الفكاهة في ذلك العصر قد لجؤوا إلى ذلك لإبراز ما أصاب المجتمع من أمراض وأوبئة ومجاعات؛ إشعارًا للحكام بما يعانیه أبناء الطبقة الدنيا، ومحاولة منهم للإصلاح الاجتماعي والأخلاقي.

وربما استخدم هؤلاء الشعراء الفكاهة نوعًا من الشكوى غير المباشرة؛ استدرارًا للبهات والعطايا، أو نوعًا من محاولة إثبات الذات في المجتمع، وضربًا من التوافق والتواءم مع هذا المجتمع.

وأهم ما وقف شعراء الفكاهة عنده يتندرون به، وصف دورهم المتهدمة التي لا تكاد تتوافر فيها أسباب الحياة، وذلك كما نقرأ في قول الوراق متحدثًا عن بيته في وقت الشتاء:

وَبَيْتِي فِي الشِّتَاءِ يَكَادُ يَبْدُو بِهِ جَسَدِي لِسُكَّانِ الْجَحِيمِ

(1) انظر: كتاب الفكاهة في الأدب العربي، د. أحمد الحوفي، ص 15-17 ط 1، نهضة مصر، سنة 1966.

(2) عصر سلاطين المماليك، د. محمود رزق سليم، ج 8، ص 444، ط الآداب، سنة 1965.

(3) عصر سلاطين المماليك، ج 8، ص 444.

(4) الفكاهة في مصر، د. شوقي ضيف، ص 54، ط، دار المعارف، سنة 1985.

تَصَدُّ الشَّمْسُ فِيهِ عَنَّا حَتَّى سَى كَأَنَّ فِيهِ أَصْحَابُ الرَّقِيمِ (1)

وأما ابن دانيال، فإنه يقدم لنا لوحة فكاھية ضاحكة عن بيته، يقول فيها:
 أَصْبَحْتُ أَفْقَرَ مَنْ يَرُوحُ وَيَعْتَدِي مَا فِي يَدِي مِنْ فَاقَةٍ إِلَّا يَدِي
 فِي مَنْزِلٍ لَمْ يَجْوَ غَيْرِي قَاعِدًا فَإِذَا رَقَدْتُ رَقَدْتُ غَيْرُ مُمَدِّدٍ
 لَمْ يَبْقَ فِيهِ سِوَى رُسُومِ حَصِيرَةٍ وَمَخَدَّةٍ كَأَنَّتْ لِأُمِّ الْمُهْتَدِي
 وَالْفَارُ يَرْكُضُ كَالْحَيُولِ تَسَابَقَتْ مِنْ كُلِّ جَرْدَاءٍ الْأَدِيمِ وَأَجْرَدِ (2)

وإذا كان ابن دانيال قد وجد في داره رسوم حصيرة بالية وبقايا وسادة ممزقة، فإن الجزار لم يجد شيئاً من ذلك، فتوسد شذقه بعد أن نفخه، وافترش ظله، وهذا ما يتضح في قوله:

وَلَمْ أَلْقَ فِي بَيْتِي دَثَارًا أَعْدُهُ لِبَرْدٍ وَلَا شَيْئًا يَرُدُّ هَجِيرًا
 فَأَنْفَخُ شَذْقِي إِنْ أَرَدْتُ وَسَادَةً وَأَفْرِشُ ظِلِّي إِنْ أَرَدْتُ حَصِيرًا (3)

ومثلما وصفوا دورهم وأعطونا عنها صورة مضحكة، فقد وصفوا دوابهم وحيواناتهم، وتندروا بها وتفكهاوا، وهذا ابن دانيال يصف حماره الذي أعمى بالعرج، ويسير كالأسير ينكفي في مشيته، كأنها ينحط من درج، يقول ابن دانيال:

قَدْ كَمَّلَ اللَّهُ بِرَدُونِي بِمَنْقَصَةٍ وَشَأْنَهُ بَعْدَ مَا أَعْمَاهُ بِالْعَرَجِ
 أَسِيرٌ مِثْلَ أَسِيرٍ وَهُوَ يَعْرُجُ بِي كَأَنَّهُ مَا شَيْئًا يَنْحَطُّ مِنْ دَرَجِ (4)

(1) منتخب شعر الوراق، ورقة 381، مصور بجامعة القاهرة رقم 26375.

(2) فوات الوفيات، الصفدي، ج 2، ص 192.

(3) شعر أبي الحسين الجزار، أحمد عبد المجيد محمد، ص 153، رسالة دكتوراه بآداب قنا، سنة 1966، وانظر: ديوان الجزار، ص 42، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، ط منشأة المعارف، سنة 2001.

(4) فوات الوفيات، ج 2، ص 192.

وأما الجزار فيقول عن حماره:

هَذَا حَمَارِي فِي الْحَمِيرِ حَمَارٌ فِي كُلِّ خَطْوٍ كَبُوءَةٌ وَعِثَارٌ
فِنْطَارٌ تَبْنِي فِي حَشَاهُ شَعِيرَةٌ وَشَعِيرَةٌ فِي ظَهْرِهِ فِنْطَارٌ (1)

ويشارك ابن النقيب في رسم جزء من لوحة الدواب، فيقول عن بغلته:

"لِي بَغْلَةٌ مِنْ ضَعْفِهَا حِرَامُهَا يُثْقَلُهَا
كَأَنَّهَا رَجُلِي كَمَا تَحْمِلُنِي أَحْمَلُهَا (2)

وبالإضافة إلى التندر بالدور والدواب، فقد تندرنا وتفكحوا بمهنتهم وألقابهم؛ إذ لم تسلم هذه أيضاً من نظرفهم وتباهلهم، يقول السراج الوراق متلاعياً بالألفاظ:

خَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي سِرَّجًا وَقَدْ عُدْتُ مِنَ الْأَمْطَارِ قُنْدِيلًا
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شُكِرَهُ بِهِ لِسَانِي عَادَ قُنْدِيلًا (3)

وأما الجزار فيتحدث عن مهنته ولقبه، فيقول:

أَصْبَحْتُ لِحَامًا وَفِي الْبَيْتِ لَا أَعْرِفُ مَا رَائِحَةُ اللَّحْمِ
وَلَيْسَ حَظِّي مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ قَنَعْتُ مِنْ ذَلِكَ بِالْأَسْمِ
وَاعْتَضْتُ مِنْ فَقْرِي وَمِنْ فَاقْتِي عَنِ التِّذَازِ الطَّعْمِ بِالشَّمِّ
جَهْلَتُهُ فَقَرًّا فَكُنْتُ الَّذِي أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِ (4)

ولهم إلى جانب ذلك صور مضحكة ولوحات فكاهية لطيفة ظريفة في وصف طعامهم وملابسهم وخلقتهم وخلقتهم، ولجئنا أحياناً إلى مسخ قصائد قديمة مشهورة

(1) مطالع البدور، الغزولي، ج 2، ص 184.

(2) مطالع البدور، ج 2، ص 201.

(3) منتخب شعر الوراق، ورقة 370.

(4) شعر الجزار، ص 60.

لبعض الشعراء المشهورين، وذلك مثل قصيدة الجزار في معارضة معلقة امرئ القيس، يقول الجزار في تلك القصيدة متظرفاً:

قَفَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي قَمِيصٍ وَسِرْوَالٍ وَدُرَاعَةٍ لِي قَدْ عَفَا رَسْمُهَا الْبَالِي
وَمَا أَنَا مَنْ يَبْكِي لِأَسْمَاءَ إِنْ نَأَتْ وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى فَقْدِ أَسْمَائِي (1)

(1) شعر الجزار، ص 188، وفي طبعة منشأة المعارف، تحقيق: د. محمد زغلول سلام يأتي الشطر الثاني من البيت الأول هكذا: (... ودراعة لي قد جفا غضها البالي).